الفكر التربوي عند برهان الاسلام الزرنوجي

أ.د. معتوق جمال
جامعة البليدة2

ملخص:

يتناول هذاالأفكار التربوية عند المربي برهان الاسلام الزرنوجيوالذي عُني بأهمية التربية الإسلامية المستمدة من الكتاب والسنة في المجتمع المسلم، وسعى إلى تأكيد الجوانب الأخلاقية التي تؤدي إلى تحصيل العلم وتحقيق شرائط التربية، لذا ركزنا بصورة أساسية على معرفة الفكر التربوي لبرهان الدين الزرنوجي من خلال كتابه تعليم المتعلم طريق التعلم.

Cet article examine les pensées éducatives chez le grand pédagogue Borhan Islam Zernoudji qui s'est intéressé à l'importance de l'éducation musulmane inspirée du Coran et de la Sunna dans la communauté musulmane par laquelle il a cherché à confirmer les aspects éthiques qui conduisent à l'acquisition du savoiret à la réalisation des conditions de l'apprentissage. C'est pourquoi nous nous sommes concentrés dans cet article, de façon fondamentale, sur la compréhension de la pensée éducative chez Zernoudji à travers son livre . apprendre à l'apprenant les la méthode d'apprentissage .

تمهيد

تعددت اسهامات المربين المسلمين وتنوعت مشاربهم وانتماءاتهم العرقية والأيديولوجية إلا ان المشروع التربوي كان واضح الملامح والأبعاد. وفي هذا العمل نحاول تقديم أحد عمالقة الفكر التربوي الإسلامي وهو برهان الإسلام الزرنوجي، من خلال كتابه تعليم المتعلم طرق التعلم.

1- من هو برهان الاسلام الزرنوجي

لقد اغفلت كتب التاريخ والطبقات والتراجم ذكر هذا الرجل الذي أعطى نتاجا من أهم وأوضح وأوجز ما كتب في الفكر التربوي والتعليمي الإسلامي في عصره، حتى اسمه لم نملك أن نتعرف إليه فقد اشتهر بلقبه وهو: برهان الإسلام أو برهان الدين على اختلاف في المراجع، وذلك على عادة العلماء والمشاهير في تلك العصور، التقلب بهذه الألقاب الدينية التي يرجى منها إظهار صاحبها بمظهر متدين.

ويفسر هذا الاغفال وعدم تناول أعمال الزرنوجي بالتحقيق والدراسة أو الإشارة إليها في كتب الفكر والتاريخ بالتناول الانتقاء والعمل على إقصاء البعض والتركيز على البعض دون غيرهم. ومن المعاناة التي لا تزال تطارد المفكرين والمبدعين في اوطاننا إلى حد اليوم.

الزرنوجي نسبة إلى بلده زرنوج وهي كما يقول القرشي صاحب الجوهر المضيئةمن بلاد الترك، أما يقوت الحموي فقال عنها في معجمه بلاد مشهور بما وراء النهر بعد خوجند من أعمال تركستان.

متى عاش الزرنوجي؟ لم نجد في المراجع سنة ولادة أو سنة وفاته مما يصعب معه أن نعين بالضبط الفترة التي عاش فيها. في الكتابات الحديثة عن الزرنوجي وآرائه في التعلم ذكرت سنة وفاته انها عام 591 هـ أو 597.

2- مؤلفاته

عرف برهان الإسلام الزرنوجي بأنه مؤلف كتاب تعليم المتعلمهذا الكتاب هو المصنف الوحيد الذي كتبه الزرنوجي ولم يكن له انتاج علمي آخر لا في التربية ولا في الفقه أو غيره من العلوم طالما أن جميع من حكى عنه اكتفى بذكر كابه هذا.

3- عصر الزرنوجي

يقول الدكتور شيخ مروان قباني محقق كتاب تعليم المتعلم طرق التعلم: لعل القرنيين السادس والسابع الهجريين حملا الكثير من ملامح القرون السابقة التي شهدت انفصالا حقيقيا بين الأوضاع السياسية وبين ازدهار المدينة الإسلامية ففي الوقت الذي نرى فيه الصراع السياسي وتفكك الدولة العظمى إلى إمارات ومناطق نفوذ، ندهش لما أنتجته تلك المدينة من أفكار وعلوم، وعلماء ادب وأدباء في شتى نواحي المعرفة. وبرهان الدين الزرنوجي عاش في القرن السادس الهجري الذي تميز بأحداث جسام ومظاهر اجتماعية بارزة من فتن وحروب وقلاقل، أدت إلى ضعف وتمزق كيان الأمة الإسلامية ولكن رغم ذلك فقد صاحب هذا العصر حياة علمية زاهية

1-3 الحالة السياسية في القرن السادس الهجري

بعد مقتل آخر خلفاء بني امية مروان بن محمدفي عام 132 هـ، تسلم بنو عباس الخلفة، وامتد حكمهم أكثر من خمسة قرون، كانت تعتبر من العصور الذهبية للخلافة الإسلامية علما وحضارة وإنتاجا وعطاءا، إلا انها في الوقت ذاته تميزت بتغيرات سياسية جسيمة، إذ أن الامة الإسلامية خلال فترة حكم العباسيين تعرضت لحدثين زلزلا الخلافة. أولهما الغزو الصليبي للثغور الإسلامية في بلاد الشام عامة وفي بيت المقدس خاصة. وقد امتد قرابة قرنين كانت النتيجة فيهما اندحار الصليبيين وهزيمتهم شر هزيمة. أما الحدث الثاني فهو الغزو المغولي الذي قضى على الخلافة العباسية

في بغداد، وطمس معالم الحضارة، ودمر منائر الثقافة، وقوض صروح ومعاهد العلم الخاصة بمختلف صنوف المؤلفات والموسوعات والمجلدات.

2-3 الحالة الاجتماعية

إن كان الالمام الدقيق بالظواهر الاجتماعية في هذا العصر وتسجيلها أمر شائك فالبقاع التي انسلخت عن جسم الخلافة تعددت وكثرت، وأصبح لكل بقعة من البقاع في الدولة الإسلامية مناح اجتماعية معينة تميزت وتباينت عن غيرها من الأقطار، كما أن الأجناس التي تسكن هذه البلدان كان بداخلها الكثير من الاختلاف والتباين في الميول والأهواء وطريقة المعيشة، وهناك أيضا جانب ساعد على اختلاف الناحية الاجتماعية وتباينها، وهو ضعف الخلفاء وسيطرة الأمراء، ولئن أدرج هذا الامر ضمن الناحية السياسية إلا انه كانت له آثاره الواضحة في الناحية الاجتماعية، فكل هذه الأمور ساعدت على كثرة الظواهر الاجتماعية في هذا العصر بصورة يصعب معها إحصاؤها بتفصيل في هذا المجال.

أما أهم المظاهر الاجتماعية المميزة لهذا العصر فتكمن ضمن التقسيمات التالية:

3-2-1 انقسام المجتمع الإسلامي في هذا العصر الذي نحن بصدده (العصر السلجوقي) إلى عدة طبقات يمكن تباينها كما يلي

– **الطبقة الخاصة:** هي طبقة الخليفة وذويه واقاربه وخاصته، ويأتي ضمن هذه الطبقة رجال الدولة من الأشراف والوزراء والقضاة، وهؤلاء هم الذين يصرفون أمور الدولة. وقد انظم إلى هذه الطبقة العلماء والأدباء والكتاب والشعراء لما لهم من مكانة.

– **الطبقة العامة:** وتتكون من السواد الأعظم من الناس اهل الحرف والصنائع والتجار والفلاحين والجند. وهذه الطبقة لاسيما في بغداد كانت تؤلف خليطا من

مختلف الجنسيات والعروق، فقد كان هناك العرب والفرس والأكراد والبربر وغيرهم.

-**أهل الذمة:** وهم النصارى واليهود الذين بقوا على دينهم، وأصبحوا رعايا في الدولة الإسلامية، وسموا بأهل الذمة، لان الذمة في العهد الذي بينهم وبين المسلمين، وهو أن يدفعوا الجزية للمسلمين مقابل حماية الدولة لهم. ويطبق عليهم ما يطبق على المسلمين من التشريعات المدنية والإدارية، ويحل للمسلمين أن يتزوجوا منهم ويأكلوا ذبائحهم. وقد انظم إليهم المجوس – عبدة النار- الذين عوملوا معاملة أهل الذمة إلا أن نسائهم لا تنكح وذبائحهم لا تؤكل من قبل المسلمين.

-**الرقيق:**وهم أسرى الحرب الذين يأسرهم المسلمون أثناء الحروب، وكانوا يؤلفون الأغلبية الساحقة من طبقة الخدام والجواري، وكان الرقيق في الدولة الإسلامية أنواعا متعددة منهم الصقلبي والرومي والزنجي والتركي، وكان أكثر الرقيق في هذا العصريجلبون من بلاد ما وراء النهر. وقد أثر هذا الوضع الطبقي على الحياة الاقتصادية والمعيشية للأفراد وزاد في الفجوة والتباين الطبقي بين الناس. كان ساهم في انتشار الفتن والصراعات وخاصة المجاعات التي كان سببها الفساد السياسي والاقتصادي وهو ما أشار إليه العلامة تقي الدين المقريزي في كتابه -إغثة الأمة في كشف الغمة.

4- التعريف بكتاب تعليم المتعلم طرق التعلم

4-1 الهدف من تأليف الكتاب: لما كان الزرنوجي قد عاش في أواسط القرن السادس الهجري وهو القرن الذي ضعفت فيه جبهة المسلمين الداخلية مما حرض الصليبيين على غزواتهم المتكررة على ديار الإسلام، ونظرا لظهور الكثير من الفرق في عصره والتي تسربت إليه الكثير من الآراء غير الإسلامية، فقد رأى مثله مثل الكثير من المخلصين في ذلك العصر ضرورة العودة إلى الكتاب والسنة وذلك

عن طريق التربية والتعليم، وكان كتاب تعليم المتعلم طرق التعلم واحدا من الكتب التي أسهمت في تحقيق هذا الهدف.

ويرى الدكتور فرحان أن التربية والتوجيه في الإسلام تنبثق من الأيدولوجية (العقيدة) الإسلامية نفسها، فخصائص الرسالة الإسلامية تنعكس على خصائص العملية التربوية وتصبغها بصبغتها. هذا مع الإشارة إلى الهدف وضع هذا المؤلف يندرج في إطار الحفاظ على النشء وخاصة العمل على حمايتهم من الآراء الهدامة والأفكار المنحرفة التي شاعت في ذلك العهد. وعليه نرى بأن لهذا العمل بعد علمي بالإضافة إلى بعد عملي بالدرجة الأولى.

2-4 وصف الكتاب: يحتوي هذا العمل على 13 فصلا موزعة كالآتي:

- الفصل الأول: في ماهية العلم والفقه وفضله.
- الفصل الثاني: في النية في حال التعلم.
- الفصل الثالث: في اختيار العلم والأساتذة والشريك والثبات.
- الفصل الرابع: في تعظيم العلم وأهله.
- الفصل الخامس: في الجد والمواظبة والهمة.
- الفصل السادس: في بداية السبق وقدره وتربيته.
- الفصل السابع: في التوكل.
- الفصل الثامن: في وقت التحصيل.
- الفصل التاسع: في الشفقة والنصيحة.
- الفصل العاشر: الاستفادة واقتباس الأداء.
- الفصل الحادي عشر: في الورع في حالة التعلم.
- الفصل الثاني عشر: فيما يورث الحفظ، وفيما يورث النسيان.
- الفصل الثالث عشر: فيما يجلب الرزق، وفيما ينمنع، وما يزيد في العمر وما ينقص.

5-أهمية الكتاب وقيمته التربوية

لكتاب تعليم المتعلم طريق التعلم قيمته بين النتاج العلمي فقد ترجم إلى اللغة اللاتينية وعددا من اللغات الأجنبية مثل الألمانية والانجليزية لمل يحمله من قيم تربوية مفيدة، وكان معروفا ذائع الصيت مقدرا عند علماء المسلمين، ومن الدارسين والمحدثين مثل إبراهيم سلامة من يعده أحد ثلاثة كتب تفرغت تمما لموضوعات التربية وهي

- **الفضيلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين** للقابسي القيرواني وكان حتى عام 1949 مخطوطا محفوظا بدار اكتب المصرية، إلا أن أحمد الأهواني حققه ودرسه ونشره تحت عنوان (الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين) في سنة 1955.

- **تعليم المتعلم طريق التعلم** للزرنوجي الذي هو موضوع الدراسة.

-**في أحكام المعلمين والمتعلمين** لمحمد بن أبي زيد، ولا نعرف ما إذا كان هذا الكتاب قد حققأو درس أم لا.

وقد كتب العديد من الباحثين والمهتمين بالقضايا التربوية والتعليمية عن كتاب الزرنوجي وأشاروا إلى أهميته الكبرى وما له من افكار علمية في ميدان التربية. وفي هذا يقول عبد اللطيف محمد العبد عن كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم أنه من انفع الكتب التربوية النابض بالحيوية دائما بالرغم من أنه من كتب التراث. ويرى مروان القباني أن أهمية الكتاب تبرز في انه يعالج موضوع التعلم وهذا يحتل مكانا بارزا في علم النفس التربوي، لما له من دور أساسي في العملية التربوية التعليمية، ولمل له من المكانة الرئيسية في علم النفس العام.

كما أشار الزرنوجي إلى أن الانشغال بالعلائق الدنيوية تبعد المتعلم عن تحقيق الهدف من التعلم من طلب رضاء الله وإخلاص النية له، والوصول إليه لا يتم

والمتعلم منشغل الفكر، فلن يستطيع أن يعطي العلم حقه أو أن يقوم به خير مقام من تفقه وحفظ لأن التعليم يحتاج لصفاء الذهن وتكريس الوقت والجهد وعلى المتعلم أن يسعى لطلب الرزق بما يكفيه ومن يعول،ولا يجعل المناصب وكثرة المال همه في الدنيا بل هدفه هو تحصيل العلم والعمل به.

هذه بعض المواقف والآراء حول هذا الكتاب وماله من أهمية في ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية عامة وبالخصوص في ميادين كل من علم التربية، وعلم الاجتماع التربوي، وكذلك علم النفس التربوي. كما يبقى هذا العمل شاهدا على عبقرية العقل المسلم وما قدمه ولا يزال من خدمة وأفكار وعارف للإنسانية جمعاء.

6- ماهية العلم والفقه وفصله

نجد في البداية أن الإمام الزرنوجي يستشهد بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكذلك آراء كبار العلماء المسلمين لتبيان فضله وقيمة العلم. ومن بين هذه الأحاديث نذكر حديث الرسول (ص): طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

كما أنه لا يطلب من المسلم تحصيل أو طلب كل أصناف العلوم بل كما يقول الزرنوجي: لا يفترض على كل مسلم طلب كل علم وإنما يفترض عليه طلب علم الحال[1]. هنا نلاحظ ان الزرنوجي يعمل على إعادة إنتاج وتجسيد الأيديولوجية الدينية الإسلامية التي هو جزء لا يتجزأ منها بالإضافة إلى كونه لا يخال جل علماء ومفكري زمانه في اتباعهم للأطر الدينية.

كما نجد أن الدين الإسلام لم يستثني جنس دون الآخر من عملية كسب المعارف والتعلم، بل العكس التعلم إلزام لكلا الجنسين. ولا يخص الذكور دون

الإناث كما يعمل البعض على ترويجه. والحديث النبوي الشريف السابق ذكره يؤكد هذا، كما يؤكد أسبقية الإسلام والمسلمين في انصاف الجنسين وفتح باب المعرفة والتعلم امامهم دون أي تمييز جنسي.

كذلك نسجل من خلال كتاب تعليم المتعلم طرق التعلم بأن أول تعلم يجب الاقبال عليه هو التفقه في أمور الدين، ولهذا نجد الزرنوجي يقول: الأمر العارض للإنسان من الكفر والإيمان والصلاة والزكاة والصوم وغيرها من الأحوال لا الحال المقابل للمستقبل من الصحة والمرض والسفر والحضر. وعليه معرفة العلوم الدينية وخاصة أركان الإسلام وتطبيقها في البداية تكون أول شكل من أشكال التعليم، يجب على المتعلم تحصيله لكي يتفرغ إلى باقي العلوم الأخرى. كذلك المسلم ملزم بالتفقه في أمور دينه، حتى لا يكون عرضة للانحرافات أو لعبة بين أيدي من يدعوا انهم علماء في الدين والعقيدة. فكم من جاهل لدينه راح ضحية لهذا الجهل وسقط في ايدي تجار الدين، عملوا على غرس في عقله التطرف والتعصب وفلسفة الموت والكراهية للآخر. بالإضافة إلى هذا نشير الى ان الزرنوجي أعاد إنتاج نفس التصور ولم يأتي بجديد بالنسبة لما يجب ان يتعلمه المتعلم في بداية رحلته لكسب العلم والمعرفة. في المقابل نجد صنف من العلماء قد نادوا بتعلم العلوم بشقيها الديني والدنيوي ولم يكتفوا بصنف أو نوع معين من فروع المعرفة والعلوم، ومن بين هؤلاء العلماء نذكر على سبيل المثال ابن سينا الذي دعمه في طرحه المتمثل في البدء بالعلوم الدنيوية: كاللغة والاعراب والحساب وغيرها، ثم الانتقال ّإلى تعلم القرآن وعلم الشرع بشكل عام وهو ما جعل العلامة ابن خلدون يأخذ بالفكرة ويطبقها في مشروعه التربوي، بالرغم من استدراكه ان العادة في المجتمعات الإسلامية هي البدء بالعلوم الدينية ثم الانتقال الى العلوم الوضعية.

وحول شرف العلم وانفراد الانسان به عن باقي المخلوقات نجد الزرنوجي يقول: وشرف العلم لا يخفى على أحد إذ هو المختص بالإنسانية لأن جميع الخصال سوى العلم يشترك فيها الإنسان وسائر الحيوانات: كالشجاعة والجراءة والقوة والوجود والشفقة وغيرها سوى العلم. ونظرا لانفراد الانسان العاقل بهذه الميزة والخصال (العلم) فقد امر الله الملائكة أن تسجد لآدم عليه السلام. وفيما يخص الغاية من طلب العلم فهي التقرب الى الله عز وجل ولهذا فهو يقول: (إنما شرف العلم يكون وسيلة الى البر والتقوى، الذي يستحق بها المرء الكرامة عند الله والسعادة الابدية). هذا التصور نجده عند غالبية المفكرين والمربين المسلمين ونذكر بالخصوص: ابن سحنون، القابسي، اخوان الصفا، أبا حامد الغزالي وابن مسكويه وغيرهم كثيرون.

كما ان الزرنوجي لم يحصر فقط غاية طلب العلم في التقرب الى الله عز وجل، بل أضاف قائلا: العلم وسيلة الى معرفة: الكبر والتواضع والألفة والعفة والاسراف والتقتير وغيرها كذلك في سائر الاخلاق نحو الجود والبخل والجراءة، فإن الكبر البخل والجبن والاسراف حرام، ولا يمكن التحرر عنها إلا بعلمها وعلم ما يضادها، فيفترض على الانسان عملها. غاية العلم عند الزرنوجي ليس الجاه والسلطان، بل التواضع والتقرب الى الله والتجرد من كل الاطماع والرذائل والتشبع بمكارم الأخلاق. وعليه نجد الزرنوجي هو من بين العلماء الأوائل الذين رءوا في ان العلم الحقيقي هو ذلك العلم الذي الغاية منه جعل المتعلم قادرا على التمييز بين كل من مكارم الأخلاق والرذائل. لان العلم مفتاح للنور وبه يستطيع المرء كسب الصفات الحميدة والنبيلة والسمو.

ومنه يمكن القول بان منهاج الزرنوجي يعتمد على: التعلم ثم التقييم وليس العكس، كما هو معمول به في الكثير من مدارسنا وأسرنا، حيث يسرع إلى المحاسبة

والمعاقبة وتوبيخ المتعلم (الصبي) قبل تزويده بالمعارف اللازمة للتمييز بين ما يجب قوله وفعله وما يجب الامتناع عن القيام به.

7- علوم يجب الابتعاد عنها حسب الزرنوجي

نجد أن الامام الزرنوجي مثل العديد من العلماء العرب والمسلمين قد صنف العلوم الى نوعين: علوم محمودة وعلوم مذمومة. فالعلوم المحمودة كما رأينا سابقا هي تلك العلوم التي يستطيع بفضلها الفرد التقرب الى الله والقيام بالعمل الصالح، بينما في الطرف الثاني نجد العلوم المذمومة والتي يجب الابتعاد عنها وتجنبها وكأمثلة عنها السحر وعلم النجوم.

وقد وجدنا ان أغلبية العلماء المسلمين قد اتفقوا على مسألة تجنب العلوم المذمومة، خاصة منها السحر وعلم التنجيم والشعوذة، وهذا لما لها من آثار سلبية على أفراد المجتمع. وقد رأينا أن أبا حامد الغزالي قد أشار إلى هذه المسألة في كتابه إحياء علوم الدين على العكس من ابن خلدون صاحب المقدمة وخاصة في كتابه المسمى: شفاء السائل من تهذيب المسائل، وكذلك اخوان الصفا، الذين نادوا وشجعوا على ممارسة التنجيم، بل نجدهم قد فسروا العديد من المسائل انطلاقا من علم التنجيم.

وقد قال الزرنوجي في حق العلم المذموم: وعلم النجوم بمنزلة المرض، فتعلمه حرام، لأنه يضر ولا ينفع، والهرب عن قضاء الله تعال وقدره غير ممكن. اللهم إذا كان تعلم النجوم قدر ما يعرف بالقبلة، وأوقات الصلاة، فيجوز ذلك واما إذا ما تعلم علم الطب فيجوز لأنه سبب فيجوز تعلمه كسائر الأسباب.

يمكن القول بان أسباب تحريم علم النجوم يعوج إلى كون المقبلين على هذا العلم يربطون مصيرهم كله بها ويرجعون كل ما يصيبهم من خير أو شر إلى النجوم، وهذا أكبر مظهر من مظاهر الشرك، حيث يصبح للنجوم دخل وقوة في تحديد مصيرهم. كذلك نجد ان الممارسين والمختصين في علم النجومأو بالأحرى

(التنجيم) يستغلون جهل ويأس زبائنهم ويوهمونهم بان النجوم قادرة على إحداث التغيير المنشود وتغير أوضاعهم. في المقابل يجب ان لا نخلط بين علم الفلك والتنجيم، فاليوم الامة الإسلامية بحاجة ماسة إلى علم الفلك، فهي لم تستطع حل أبسط مشكلاتها المتعلقة بالزمانية، خاصة فيما يتعلق الامر بشهر رمضان ومسألة رؤية الهلال وغيرها من الأمور العاجلة.

8- شروط التعلم

8-1 النية: وعليه ينبغي ان ينوي المتعلم بطلب العلم رضا الله والدار الأخيرة، وإزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال وإحياء الدين وإبقاء الإسلام، فإن بقاء الإسلام بالعلم ولا يصح الزهد والتقوى مع الجهل.

8-2 في اختيار العلم والأستاذ والشريك والثبات: في هذا الباب نجده يقول: ينبغي لطالب العلم أن يختار من كل علم أحسنه وما يحتاج إليه في امر دينه في الحال. ثم يحتاج إليه في المال. ويقدم على علم التوحيد والمعرفة ويعرف الله تعالى بالدليل، فإن إيمان المقلد وإن كان صحيحا عندنا لن يكون آثما بترك الاستدلال، أما فيما يخص اختيار الأستاذ او المعلم فنجده يقول: ينبغي ان يختار الأعلم والأورع والأسن. كما اختار أبو حنيفة رحمه الله حامد بن أبي سليمان بعد التأمل والتفكير وقال: وجدته شيخا وقورا حليما صبورا في الأمور.

نلاحظ من هذا الكلام أن الزرنوجي كان واعيا بأهمية الخبرة في ميدان التربية والتعليم، حيثلا يمكن للمتعلم الحصول على المعارف والفوز بها إلا إذا أخذ بيده معلما متقدما في المهنة، محنكا، وهذا ما لا نجده اليوم في مؤسساتنا، حيث أصبحت مهنة التعليم ملجأ لكل من هب ودب. نجد فيها الذين ما زالوا لم يصلوا إلى الاكتمال والنضج. وما المشاكل والأزمات التي تتخبط فيها مؤسساتنا التعليمية ومنظومتنا التربوية إلا انعكاسا لهذه الأوضاع. وحول الإقبال على الأساتذة والمعلمين، وهي

طريقة كان معمل بها في زمان الزرنوجي قبل التعليم النظامي الذي نعيشه اليوم، فقد كان المتعلم هو الذي ينتقل للبحث عن المعلم.

3-8 حول الشريك والصديق: فقد كتب قائلا: واما اختيار الشريك، فينبغي أن يختار المجد والورع وصاحب الطبع المستقيم المتفهم، ويفر من الكسلان المكثار والمفسد والفتان. فقد بينت العديد من الدراسات في كل من علم النفس وعلم الاجتماع أهمية حسن اختيار الشريك والصديق وهذا لما لهذا من آثار على الفرد.

4-8 تعظيم العلم وأهله: يقول الزرنوجي: اعلم ان طالب العلم لا ينال العلم ولا ينتفع به إلا بتعظيم العلم وأهله، وتعظيم الأستاذ وتوقيره أين نحن اليوم من هذا؟ لقد أصبح لا يراعى للعالم ولا للعلم، فالعالم عندنا هو بخر من ينظر إليه، إنه المسكين، الفقير، الذي لا حول له ولا قوة له. الناس يفضلون التجار وأصحاب المحلات والأموال، بينما العلماء لا قيمة لهم، نفس الشيء بالنسبة للعلم، حيث يقال في مجتمعاتنا إن طلبه مضيعة للوقت وهدر للطاقات وتسمع الكل يردد: اللي قرا واش دار؟ بمعنى ماذا فعل المتعلم بعلمه لا شيء.

5-8 الجد والمواظبة والهمة: بعد اختيار العلم تأتي ما اسماه الزرنوجي المواظبة وعليه نجده يقول: ثم لا بد من الجد والمواظبة والملازمة لطالب العلم. ويضيف قائلا: يحتاج في التعلم والتفقه ثلاثة: المتعلم والأستاذ والأب إن كان من الأحياء.

كما ان طلب العلم يتطلب المواظبة على الدرس والتكرار في اول الليل وآخره. إلا ان الزرنوجي قد تفطن إلى مسألة طاقة او قدرات كل متعلم، ولهذا فهو يطلب من هذا الأخير ألا يجهد نفسه جهدا يضعف النفس حتى ينقطع عن العلم، بل يستعمل الرفق في ذلك، والرفق أصل عظيم في جميع الأشياء فطلابنا في أغلبيتهم ينامون معظم الوقت ولما تقترب فترة الامتحانات يستيقظون من سباتهم ويبدؤون في الحفظ

ومحاولة استدراك الوقت الضائع إلا ان هذا غالبا ما يكون سبب في الانهيارات العصبية والفشل المذهل.

6-8 الشفقة والنصيحة: يقول الزرنوجي: ينبغي ان يكون صاحب العلم مشفقا ناصحا غير حاسد، فالحسد يضر ولا ينفع. وهذه الصفات: الشفقة والنصح من الصفات التي نحن بحاجة ماسة إليها، حيث أصبح الحسد والغش من الصفات المهينة على العقول والمعاملات في كل الميادين والمستويات. فكيف يمكن ان نسمي فلان بعاقل أو عالم وهو يتنفس الحسد والغش ويسلك السوء في اعماله؟ كم من منا راح ضحية الاهواء العدوانية والمبغضة لبعض الأساتذة والمعلمين. اساتذتنا في أغلبهم يطبعهم الحسد ويدفعهم للانتقام من طلابهم لمجرد رؤيتهم قد تفوقوا او نجحوا او قاموا بتأليف والبحوث إن العلم الحقيقي هو العلم الذي يدفع بصاحبه إلى نزع قناع الحيوان الضار المفترس وإلى وضع قناع المحبة والشفقة ومساعدة الآخرين.

7-8 الاستفادة واقتباس الآداب: يلخصها الزرنوجي لنا في النقاط التالية:

- أن يكون طالب العلم مستفيدا في كل وقت حتى يحصل له الكمال في العلم.
- طريقة الاستفادة أن يكون معه في كل وقت محبرة حتى يكتب ما يسمع من الفوائد العلمية.
- أن يحفظ كل يوم شئ من العلم والحكمة.
- ألا يضيع طالب العلم والأوقات والساعات ويغتنم الليالي والخلوات.
- ينبغي ان يغتنم الشيوخ ويستفيد منهم.
- لا بد لطالب العلم من تحمل المشقة والمذلة في طلب العلم.
- التملق مذموم إلا في طلب العلم، فإنه لا بد له من التملق للأستاذ والشريك وغيرهم للاستفادة منهم.

8-8 الورع في حالة التعلم: أوصى الزرنوجي المتعلم بـ:

- كلما كان طالب العلم أورع كان علمه أنفع، والتعلم له أيسر.
- أن يحترز عن الشبع وكثرة النوم وكثرة الكلام فيما لا ينفع.
- أن يحترز عن اكل طعام الأسواق إن أمكن لأن طعام الأسواق أقرب إلى النجاسة والخباثة، وأبعد عن ذكر الله، وأقرب إلى الغفلة، ولأن أبصار الفقراء تقلع عليه ولا يقدرون على الشراء منه، فيتاذون بذلك فتذهب بركته.
- أن يحترز عن الغيبة وعن مجالس المكاثر، وقال من يكثر الكلام ويسرق عمرك ويضيع اوقاتك.
- أن يتجنب أهل الفساد والمعاصي والتعطيل، ويجار الصلحاء فإن المجاورة مؤثرة.
- أن يجلس مستقبل القبلة ويكون مستنا.
- يختم دعوة اهل الخير، ويتحرز عن دعوة المظلومين.
- ألا يتهاون بالآداب والسنن.
- ينبغي ان يكثر الصلاة، ويصلي على الخاشعين فإن ذلك له عون على التحصيل والتعلم.

9- أهم الأفكار التي احتواها كتاب: تعليم المتعلم طريق التعلم

- التعلم المستمر ووجوب إخلاص النية لله و إلزامية التعليم.
- الاختيار (الحرية): مبدا الاختيار للعلم يتيح للمتعلم فرص كسب الثقة في النفس والتمييز بين ما هو صالح وما هو طالح، ومنه تجند العلم الرذيل.

- المشاورة: هي مفتاح النجاح والابتعاد عن الأفعال الذاتية والانفراد في الرأي. ولهذا فقد قال الله تعالى: (وأمرهم شورى بينهم،سورة الشورى، الآية 38.). وقال تعالى كذلك: (واستغفر لهم وشاورهم في الامر، سورة آل عمران، الآية 159).
- التدرج في اكتساب العلم: وعليه فالزرنوجي يطلب من المعلم أن يختار من العلم للمبتدئ ما يمكن ضبطه وفهمه بالإعادة مرتين بالرفق ويزيد في كل يوم كلمة ويزيد بالرفق. وان يختار له الكتب الصغيرة والواضحة.
- مراعاة الفروق الفردية: الأفراد تتفاوت قدراتهم العقلية واستعداداتهم وميولهم وذكائهم. وقد نبه القرآن الكريم إلى ذلك. حيث نجد الله عز وجل يقول: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها). والإسلام يراعي ويأخذ بعين الاعتبار طاقة الفرد وتحمله لان الطاقات والقدرات تختلف من فرد لآخر، قال الرسول (ص): (أمرنا أن ننزل الناس منازلهم)
- التأمل والفهم: يحث الزرنوجي طالب العلم على التأمل في دروسه لان العلم في رأيه لا يحصل إلا بالتأمل في جميع الأوقات وفي دقائق العلوم حتى يعتاد على ذلك المتعلم.
- التكرار: قال تعالى: (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) وفي سورة الرحمن تكررت آية (فبأي آلاء ربكما تكذبان) 31 مرة وفيها تأكيد على نعم الله الظاهرة على الثقلين الانس والجن. التكرار أسلوب تعليمي تربوي والتربية الإسلامية أكدت على أهميته.

خلاصة

يعد كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم لبرهان الدين الزرنوجي مشروعا كاملا واضح الملامح في ميدان التربية والتعليم. وقد جاء هذا العمل كما سبق الغشارة إليه من اجل اصلاح أوضاع المتعلمين والمعلمين في زمان عرف بالفساد وطغيان الأفكار الهدامة. فقد رأى الزرنوجي أن التنشئة الاجتماعية يجب ان تركز على الثنائية المعلم والمتعلم من جهة وعن طبيعة العلم والتعليم الواجب توفيره للتلاميذ.

وقد احتوى المشروع التربوي الذي قدمه الامام الزرنوجي على مقومات ودعائم أصيلة اخذه بعين الاعتبار الحاجات اللازمة والضرورية لنجاح عملية التعلم وكسب العلوم والمعارف. كما عمل هذا المشروع على إعادة تنقية وإنتاج افراد متشبعين بمقوماتهم الدينية والحضارية، وهذا حتى لا يسقطوا في الأحضان المتعفنة والنجسة، تلك الاحضان التي سعت ولا تزال تغريب أبنائنا. ويبقى التنقيب والقراءات النقدية التحليلية لمثل هذه الأعمال من المسائل المطلوبة والمرغوبة في زماننا هذا.

المراجع:

1- برهان الإسلام الزرنوجي: تعليم المتعلم طريق التعلم، تحقيق ودراسة الدكتور الشيخ مروان قبالي المكتبة الإسلامية، بيروت 1996 ص15.

2- عبد اللطيف العبد: دراسات في الفلسفة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1978 ص 202.

3- أحمد الوحيدي: الفكر التربوي عند برهان الاسلام الزرنوجي وتطبيقاته التربوية، دار الكتاب العربي، الاسكندرية 2001.